احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية

ندوة مشتركة مع مفتي الجمهورية د. أحمد بدر حسون

الإتقان من الإيمان

المطران د. بولس يازجي

متروبوليت حلب والاسكندرون وتوابعهما للروم الأرثوذكس

P.B. 6976 ALEPPO – SYRIE -TEL: + 963 21 4660670 - FAX: + 963 21 4660671

-WEBSITE: WWW.ALEPPORTHODOX.ORG E-MAIL: SECRETARY@ALEPPORTHODOX.ORG

غرفة الصناعة– حلب ٢٠٠٦

الإتقان من الإيمان[1]

مقدّمة

لطالما، في عهدٍ مضى، سمعنا عن عناوين مشابهة، لكنّها متعارضةٌ في المضمون، ومنها مثلاً الإيمان والعلم، الدِّين والحضارة، الدِّين والعقل،... وأراد عديدون قديماً أن يلصقوا بالدِّين صفة الرجعيّة أو التناقض مع العقل[2]، وأن يَهَبوا لعدم التديّن صفات التقدّم والحريّة والحضارة! وكأنّ الدِّين موضة الماضي والعقل هو موضة المستقبل. لكنّنا نلاحظ في عنوان المداخلة اليوم حسن التعبير عن مسألتَين أساسيَّتين في حياة الإنسان.

لن أتناول المسألة من وجهة نظرٍ إسلاميّة، التي لا بدّ سوف يغنينا بها سماحة مفتي الجمهوريّة الدكتور أحمد بدر الدِّين حسّون، لكن سأقارب المسألة من وجهة النظر المسيحيّة.

إنّ مناقشة هذه المسائل الحيويّة في سنة الاحتفال بحلب عاصمةً للثقافة الإسلاميّة لهو أمرٌ هامٌّ جدّاً. إنّ الثقافة الإسلاميّة (وكلّ ثقافة) هي العنصر الأساس لبناء الحضارة. تدلّ الدراسات في التاريخ البشريّ، أنّ كلّ الحضارات التي قامت على أسسٍ كالقوّة والحرب والمال والغنى، هوتْ بسرعة و لم تدُمْ. لكنّ الحضارات التي قامت على الفكر و"المدنيّة" دامت و لم تنحسر إلاّ بعد أن وُلدت حضارة أخرى أقوى منها.

يشكّل، برأيي، هذا العنوان: "الإتقان من الإيمان" مسألة تحدٍّ مشترك بين الأديان، ومنها بالأخصّ المسيحيّة والإسلام من جهة، وبين المدنيّة المعاصرة من جهة أخرى. إنّ على المسلمين والمسيحيّين أن يعملوا معاً لإنقاذ الحياة الإنسانيّة الروحيّة، خاصّة في مدنيّة المستقبل. إنّ للإسلام وللمسيحيّة كديانتَين روحيّتَين مسؤوليّة عمل مشترك تفوق بكثير على ما هو مختلف بينهما في الشرائع أو الصيغ العقائديّة. المشترك هو "الإنسان" وحريّته وتقدّمه نحو الأفضل. لذلك علينا أن ندعو دائماً كلّ مَن يحبّ الحقّ من أهل الديانتَين إلى مواجهة دهرٍ يميل إلى الزّيف، خاصّة عندما يُستبدل الحقّ بالربح والإنسان بالمصلحة، ويحتلُّ الآخرُ مكانة المستغَلّ بدل المحبوب والمحترم.

[1] مداخلة في ندوة مشتركة مع مفتي الجمهورية د. أحمد بدر حسون، في غرفة الصناعة– حلب، بمناسبة حلب عاصمة للثقافة الإسلامية ٢٠٠٦، بتاريخ ١١ أيار ٢٠٠٦.

[2] راجع كتاب مصطفى جحا، **محنة العقل في الإسلام**، ١٩٨٢.

الإشكاليّة

ما هي علاقة الإيمان بالإتقان؟ وما هي علاقة الدِّين بالتقدّم؟ ما هو رباط المبادئ الروحيّة بالثورات التكنولوجيّة؟

هل هناك تضارب؟ أم هناك تكامل؟ أَلَعَلَّ هناك تخصّص؟ للإجابة على هذه الأسئلة، لدينا إجابة أخرى. ولعرض ذلك سوف نتطرّق إلى ثلاث نقاط. الأولى هي نظرة الكتاب المقدّس إلى العمل والإتقان به. والثانية هي المشكلة التاريخيّة لما يُسمّى بتعارض الإيمان مع "العقل الحديث". ثم نَخلُص ثالثاً إلى مفهوم العمل والإتقان من النظرة الإيمانيّة.

الموضوع

I . العمل والإتقان في الكتاب المقدّس

١. البعد الأنثروبولوجي

هناك ثلاث كلمات يهمّنا تعريف العلاقة بينها، وهي: الله، الإنسان والعالم. تظنّ بعض التقوى الدِّينيّة، هنا أو هناك، أنّ ثمّة علاقة واضحة ودينيّة بين الله والإنسان، هذه قد تسمّى شريعة أو عهداً... الخ. لكنّ الأمر الباطنيّ والمخيف في هذه "التقوى" هو، أن يسقط "العالم" من هذه العلاقة بين الإنسان والله. وكأنّ هناك علاقة ثانية بين الله والعالم وعلاقة ربّما ثالثة بين الإنسان والعالم. فنرى الإنسانَ يحتفظ لله بحقوق، هي ما تنصّ عليه شريعته، وبعدها يحدّد هو (الإنسان) علاقته مع العالم.

ليس الأمر كذلك في الكتاب المقدّس! في المسيحيّة إذاً، ليس للعالم أيّة علاقة خاصّة لا مع الله ولا مع الإنسان. إنّما العالمُ هو ساحة التعامل بين الله والإنسان. في العالم يحبّ اللهُ الإنسانَ، وفي العالم يحبّ الإنسانُ اللهَ. في تعابيرنا المسيحيّة نسمّي هذه العلاقة بين الله والإنسان، والتي تأخذ من العالم "مادّةً" لها و"حيّزاً" و"زمناً"، نسمّيها "ليتورجيا".

وتستند هذه الرؤية إلى الصفحات الأولى من كتاب التكوين، فعندما خلق الله الإنسان قال: "نعملُ الإنسانَ على صورتنا كشبهنا. فيتسلطنَّ على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم و على كلّ الأرض..."[٣]. الإنسان هو إلهٌ ثانٍ، إن جاز التعبير، أي سيّد الخليقة في نظر الله الخالق. فالإنسان دون هذه المسؤوليّة تجاه الخليقة يفقد تعريفه الحقيقيّ أمام الله.

[٣] تك ١، ٢٦-٢٩.

في الرواية الثانية للخلق في سفر التكوين (٢، ٤ و١٥) يتّضح أنّه "في مبادئ السموات والأرض حين خُلقتْ" لم يكن كلّ شيءٍ بعد في الأرض، ومن ثمّ خلق الله آدم وأوجد "جنّة عدن" ووضعه فيها، ولكن كما يقول النصّ: "ليعملها ويحفظها"[٤].

هذا إذاً دور الإنسان في الخليقة، إنّه السيّدُ، والمستخدِمُ، ولكن المسؤول أيضاً. ليس العالمُ مادّةً عمياءَ يستخدم منها الإنسانُ حاجتَه ضمن شروط شريعةٍ إلهيّةٍ! بل هو هديّة الله الخالق للإنسان، يتناولها هذا الأخير بشكرٍ ويعيدها لله قرباناً. هذه النظرة تجعل الإنسان سيّداً في العالم وليس مستخدِماً وحسب! مسؤوليّة الإنسان أو سيادته تنظر إذاً إلى ما هو "أفضل" في عالمنا على الدوام. العالم ليس للاستخدام، العالم للتطوير والتحسين. ولن يبخل الله على العامل بطعام يومه!

إنّ مسألة الإبداع والتطوير هي عقيدة دينيّة في علاقة الإنسان مع الله. اختلط الأمر على أفلاطون حين آمن بأزليّة المادّة، واعتبر أفلاطون أنّ الله (Δημιουργός) بمعنى "الفنّان" الأعظم، الذي كانت المادّة حوله مادّةً عمياء لا شكل لها، فجاء اللهُ كفنّانٍ ومبدع وشكّل من هذه المادّة العمياء "جنّة عدن" التي تجري منها الأنهار...! هذا الإله، في نظرتنا المسيحيّة الكتابيّة، هو الإنسان وليس الله! إلهٌ كهذا هو الإنسان! ليس "اللهُ" مجرّد هذا الفنّان – الإنسان، إنّما هو الخالق ومعطي الحياة. أي حيث لم توجد حياة، من العدم، أعطى الله حياةً وخَلَقَ.

"إلهُ" أفلاطون هو "إنسانُ" الكتاب المقدّس. إلهُ التطوير والخَلْق والإبداع هو "الإنسان" في الكتاب المقدّس! من هنا نفهم أنّ الإبداع والإتقان والتقدّم هي عقائد دينيّة!

العالم أهم بكثير من "مادة" لإشباع الإنسان. العالم "ساحة" يتعامل فيها وبها الإنسانُ مع الله.

٢. البعد الاجتماعي

حين يدفع الإيمانُ الإنسانَ إلى التطوير، يرى الإنسانُ ذاتَه وقد زُجَّ في علاقةٍ مباشرة مع الإنسان الآخر. نظرةٌ سريعة إلى تاريخ الحضارة البشريّة توضح على الفور أنّ مسألة تأمين "لقمة" العيش لا تحتاج لساعات عملٍ طويلة. لكن تأمين "أحسن" عيش، يعني تطويراً، وهذا يعني تعاوناً. فلا يطوّر الإنسانُ العالمَ على مجهود أفراد وإنّما على تعاون جماعات. وها هي الحضارة المعاصرة قد وصلت لحدودٍ من التعامل والتعاون مفروضة لإنتاج حتى أبسط الأمور كرغيف الخبز، لكي لا نعطي مثالاً كالتلفاز أو السيارة أو المراكب الفضائيّة. إنّ "المدنيّة" و"التطوّر" و"التقدّم"... كلّها تفرض عقيدة "التعاون"

[٤] تك ٢، ١٥.

و"التعامل". هكذا إذاً يقودنا التطوير والإتقان والتقنيّة (التقدّم العلميّ عامّة) إلى العلاقة "الاجتماعيّة" والتعاون، حيث كلّ فرد هو بحاجة للفرد الآخر بالضرورة. وهكذا تجلب الضرورة فرصة المحبّة.

٣. مسؤولية المحبة

من هذا الإطار، يبدو الإتقان أمراً في الدِّين ليس لتحسين فرص الحياة وضمانها وتسهيلها أكثر وحسب؛ وإنّما هو مسؤوليّةٌ لرفع مستوى حياة البشريّة كلّها. الله إذاً، هو أبٌ للبشريّة كلّها وليس، لا سمح الله، بائعَ سلعٍ، نعطيه صوماً فيبادلنا صحّةً، أو نرمي له بجزيةٍ فيرمي لنا بحريّة. هذه العلاقات الأخيرة لا تتطلّب إتقاناً وإنّما تعني استهلاكاً. لذلك في هذا الواقع السليم لا يغدو العالم ملكيةً خاصّة، ولو بجزءٍ مهما صَغُرَ منه، بل يغدو الإنسانُ جزءاً خادماً لكليّة العالم، أي يحمل الفرد مسؤوليّة الجماعة، وكذلك العكس صحيح. في هذا الإطار لا يحمل الفقراء أو أصحاب الحاجات الخاصّة مسؤوليّة فرديّة! بل كلّ إنسانٍ وكلّ الجماعة البشريّة يحملون مسؤوليّة كلّ فرد وكلّ جماعة.

هناك إذاً مبادئ أخلاقيّة في استخدام العالم قبل المعادلات الاقتصاديّة. لا توجد إباحيّة في استخدام العالم، لأنّ هذا الأخير هو "مادّة" القربان المقدّس الذي سينجزه الإنسان بجهده وكدِّه ليقرّبه لله. يقودنا الإتقان إلى خبرة التعاون من جهة، وإلى مسؤوليّة المحبّة من جهةٍ أخرى. لا يقبل الإتقان إذاً تطوير السلاح والتغاضي عن فقيرٍ أو مريض!

II . الإيمان و"العقل الحديث"

١. تعريف العقل الحديث

"العقل الحديث" هو مصطلحٌ ساد في القرن السابع عشر بعد الثورة العلميّة في أوروبا[٥]، وهو نتاج هذه الثورة، ولقد ترك أثراً كبيراً آنذاك وشكّل صدمة تجاه المفاهيم الدِّينيّة. لذلك ظهر القرن الثامن عشر زمناً للشكّ الدِّينيّ. ولكنّنا نجد بعدها، أنّ القرن التاسع عشر عاد إلى الدِّين بالمقارنة مع القرن الذي سلفه، فالرومانسيّة التي سيطرت عليه كانت آنذاك أساساً ردّة فعلٍ دينيّة ضد تيّار الشكّ الذي سبق. ولا يصحّ تعميم هذا الاصطلاح وتحديثه على كلّ جيل.

مسألة العقل الحديث، مقصودٌ بها، اعتبار العلم هو المرجعيّة الوحيدة لتفسير مسائل الحياة والكون عامّة. وحتى في مبادئه وغاياته. علماً أنّه حين يستخدم الإنسان العقل في هذه الشؤون الأخيرة كمبدأ

---

[٥] راجع د. ولتر سيتس، **الدِّين والعقل الحديث**، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، الكويت ١٩٩٨، ص٩٣.

العالم وغاياته، يصبح متديّناً. للعلم أن يبحث في شؤون كيفيّة الحياة، وللدّين أن يعلّل البدايات ويتفلسف حول الغايات.

كان من الخطأ أن يصبح الدِّين المرجعيّةَ العلميّة، فيأمر البابا مع محاكم التفتيش بإدانة جاليلو، وذلك لقبول الأخير بمبدأ الهليوسنتريّة. كما يكون من الخطأ دوماً أن يتنطّح البحث العلميّ لأمورٍ خارج مادّة هذا الكون وطريقة عملها، ومنها مثلاً الله والإيمان والمبادئ والغايات. فالعلم يمكنه أن يحسِّن عالم "الوسائل"، ويهتمّ به ويطوّره، ولكن ليس للعلم أن يبحث ويقيس بالأرقام "عالم المعاني"، وهذا الأخير له وقعٌ أهمّ في حياة الإنسان. لذلك في تلك الحقبة التاريخيّة من الزمن اصطدم الدِّين بالإتقان والتطوير – الحديث.

يتعرّض الباحثون اليوم إلى ذلك الصراع الشهير بين العلم والدِّين، من زاوية المتناقضات المفترضة بين معتقدات معيّنة للدِّين ومكتشفات معيّنة للعلم. هكذا حطّمت المكتشفات الجيولوجيّة العقيدة الدِّينيّة بأنّ العالم خُلق في ستّة أيام. وحطّمت نظريّة داروين المعتقد بأنّ للإنسان خَلقٌ خاصّ غير مرتبط بعالم الحيوان. وتهزّ اليومَ العلومُ الحديثةُ حول الاستنساخ (بيولوجيّة) وعلمِ الجينات ووسائلِ الاتّصال الحديثة الكثيرَ من الأطر الدِّينيّة الأقدم، وتفتحُ باباً للكثير من الصعوبات والأسئلة على العالم الدِّينيّ.

إنّ هذا التفسير للصراع بين معتقداتٍ ومكتشفات هو تفسيرٌ سطحيّ جدّاً، وقد برهنت الأيام أنّه سيزول بعد حين. لكنّ الصراع العميق والحقيقيّ هو حول نظرة الإنسان للكون، هل هو مسألة علميّة أم مسألة أخلاقيّة دينيّة، في سبب وجوده وغاياته وليس في طريقة وجوده؟

النظرة الدِّينيّة للعالم تضع له غاية ومبدأ، يفسّران الطريقة الأخلاقيّة للتعامل معه. أمّا النظرة العلميّة فتتجاهل هذه الروابط الروحيّة والخلقيّة، ولو تطلّبت أخلاقيّات محدّدة للتعايش فيه أو لاستخدامه. من هنا يجب أن نعالج موضوع الصراع بين الدِّين وبين العقل الحديث، الذي هو الأخير "تديَّنَ في العصور الوسطى" فقتل الدِّين!

٢. عمق الصراع: بدايات وغايات، نتائج

نظام أم صدفة؟

طالَعَنَا العلمُ اليوم بنظريّة الصدفة لرفض المبدأ الدِّينيّ (ذي التفسيرات المنقوضة) بوجود إلهٍ خالقٍ هو المبدأ. لكنّ العلمَ ذاته مال فيما بعد، بعد تطوّره واتّساع اكتشافاته، إلى نظريّة النظام. فالصدفة لا تفسّر كلّ هذا النظام الكونيّ الإيجابيّ. والسؤال: هل هذا "النظام الكونيّ" أوتوماتيكيّ أم يوجّهه مَن أوجده؟ هل جاء هذا النظام من خالق أم أيضاً بالصدفة؟ إنّ العقل العلميّ لا يمكنه أن يقتنع بالصدف!

المبادئ الدِّينيّة تتلخّص بـــ:

١. للعالم مبدأ وخالق؛
٢. هذا الخالق له غرض في الخلق، فالخليقة لها خطّة كونيّة؛
٣. يخضع العالم إذاً لنظام أخلاقيّ من هذه الرؤية.

بين هذه المبادئ والعلوم الحديثة لا يوجد تناقض، ولا حتى حيّز مشترك للعمل عليه، إلاّ عندما يتفلسف العلم والبحث حتى درجة التديّن.

كان للتناقض الذي تعاظم في أوروبا أسبابٌ عديدة، منها أوّلاً، إعادة المرجعيّة في كلّ شيء إلى الدِّين، وعدم فهم الدِّين والكشف الإلهيّ في إطاره التاريخيّ؛ إضافةً إلى الأمور التي سيطرت، للأسف، على الكنيسة في العالم الغربي طيلة القرون (الثامن عشر، التاسع عشر والعشرين). وثانياً، الجهل العلميّ ذاته، وميل الناس إلى تفسير الشؤون الطبيعيّة للكون سحريّاً، وهذا الأخير أقرب إلى الدِّين منه إلى البحث.

أ. الغرضيّة

لقد أراد العقل الحديث نسيان فكرة "غرضيّة العالم" كردّة فعل على صورة العالم القديمة المتخيّلة لعالم تحكمه أغراضٌ إلهيّة سحريّة ومجهولة. وبدأت تحلّ محلّها بالتدرّج صورة متخيّلة لعالم بلا أغراض. لكن، إذا كانت ردّة الفعل مبرّرة لحين، فهل ينكرُ العقل الحديث أيّةَ خطّة أو غرض في الأشياء؛ خاصّةً في شأنٍ كالعالمِ والإنسان؟

هناك، بالطبع مثقّفون عديدون رفضوا ذلك، أو عند الإلحاح عليهم منطقيّاً، يكتفون بموقف "اللاإراديّ" بخصوصها[٦].

إذا كان العالم ككلّ بلا معنىً ولا غرض، فسوف تكون كذلك أيضاً الحياة البشريّة. وهذه الرسالة بشّر بها العلم الحديث لسنوات. وهنا تكمن نقطة الخلاف بين الدِّين والعلم. كانت أغلب المسرحيّات والفنون والأعمال الإنسانيّة تقدّم حياة الإنسان كـــ دراما – مأساة. وجاء العقل الحديث يرفض وجه الألم فنسف هذه المعاني للحياة. على الدِّين أن يشرح معنى الحياة في تفسيرٍ يقبله العقل الحديث، وإلاّ سيبقى الصراع قائماً بين الدِّين (في تفاسيره) وبين العلم (في رغبته بالتحرّر من تلك التفاسير).

ب. "ذاتيّة القيم"

مادام لا يوجد تعارض بين المعتقدات والمكتشفات فأين المشكلة؟ لا يؤثّر على الحقيقة الدِّينيّة إذا كانت الأرض تدور حول الشمس أو العكس. لكن ما هي الآثار السلبيّة للثورة العلميّة على الأديان؟

---

[٦] هي بإيجاز العالم كما يقدّمه العلم لكي نؤمن به، وهو عالم يخلو من الأغراض، عالم لا معنى له: "عبادة رجل حرّ. لونجمان، **التصوف والمنطق**، نيويورك، ص ١١٩.

الأثر الأساسيّ هو تحويل العالم والكون من خليقة ضمن إطار أخلاقيّ (بسبب الخالق الصالح) إلى خليقة أوتوماتيكيّة (عالم الصدف – النظام الذاتيّ). وتحويل القيم والأخلاقيّات إلى (قيم ذاتية) يمكن تبديلها لأنّها مرتبطة بالمجتمع المتبدّل وليس بالله غير المتبدّل. هكذا بدأت القيم والمُثُل تتبدّل. فما هي القيمة؟ ومن أي نوع هي (مادامت ليست دينيّة بعدُ)؟ هل هي اقتصاديّة، أخلاقيّة، جماليّة، إنسانيّة، سياسيّة،...؟ بمعنى آخر هناك "غرضيّة" جديدة، لم تعد هي المخطّط الإلهيّ للعالم والإنسان. ولم تعد القيم تقيَّم على موضوعيّة دينيّة، ولهذا صارت القيم شأناً فردياً أكثر ممّا هو جماعيّ وكونيّ.

هناك ارتباط بين القيم والغايات. فأيّ شيءٍ له قيمة بالنسبة لأحدٍ ما أو لغرضٍ ما! عندما نلغي الله والدِّين، عندها تحدّد هذه الغاياتِ ليس المبادئُ الإلهيّة أو الكونيّة وإنّما سيكولوجيا العصور والتيّارات الفكريّة. عندها على أيّ أساس (بعد غياب إله الصلاح) نحدّد معنى الخير والشرّ، سوى على معيار الأغراض البشريّة المتنوّعة والمتبدّلة والمتطوّرة؟ وهذه الأغراض الشخصيّة تُسمّى بالمذهب الذاتيّ (أي ذاتيّة القيم)، وهذا ليس نظاماً أخلاقيّاً عالميّاً، كالأديان.

ج. نسبيّة القيم

إنّ تبدّل الغرضيّة بحسب الناس وأزمانهم وثقافاتهم يجعل المعايير لمفهوم الخير والشرّ معايير نسبيّة، أي أوّلاً: متفاوتة، وثانياً: ما هو خير لدى بيئة معيّنة بمعاييرها قد يظهر شرّاً في أخرى، وبذلك لا يمكننا أن نعتمد معياراً واحداً خارجيّاً يحكم على الأمور ويحدّد أيّها صواب وأيّها خطأ! وهذه النسبيّة قد تكون فرديّة أو جماعيّة، والآن يجب أن تصير عالميّة.

كملخّص تاريخي: من العصور الوسطى إلى العصر الحديث:

١. حين تتأسّس الأخلاق على الغرضيّة، إلهيّة كانت أم كونيّة، تصير موضوعيّة ويمثّل العالم حينها نظاماً أخلاقيّاً.
٢. سبّبت الثورة العلميّة فقدان الناس للإيمان الحقيقيّ بالغرضيّة، بناءً على العلوم الطبيعيّة الجديدة.
٣. لم تعد الأخلاق تتأسّس على غرضيّة إلهيّة أو كونيّة.
٤. لا بدّ من ربط القيم بغرض ما.
٥. كان البديل هو أغراض البشر.
٦. ارتبطت القيم بالأغراض الفرديّة، إذ لا يوجد غرضٌ بشريٌّ مشترك عامّ.
٧. تكوّنت الغرضيّة الذاتيّة.
٨. وهذه الذاتيّة الأخلاقيّة قادت إلى النسبيّة، أي لا توجد أخلاق عامّة بل خاصة لكلّ فرد.

النظرة الدِّينيّة للعالم	**النظرة – العلميّة – الطبيعيّة للعالم** (Naturalism)
١. للعالم سيّد روحيّ يحكمه	١. تحكم العالم قوى فيزيائيّة
٢. للعالم غرض	٢. ليس للعالم غرض – عبث
٣. يمثّل العالم نظاماً أخلاقيّاً	٣. العالم كون محايد للقيم

د. الحتميّة والحريّة – البعد الأخلاقيّ

هل هناك إرادة حرّة؟ إذا آمنا بالفلسفة "المادّيّة" كما نيوتن، بأنّ كلّ حادثة تحكمها تماماً سلسلة الأسباب التي يمكننا أن نتعقّبها، يكفي أن تكون لنا القدرة على جمعها وتحليلها، يمكننا حينئذ أن نعرف حقيقتها. إذاً لكلّ الأمور أسبابها منذ بداية الزمان، وبالتالي هي حتميّة[٧]، رغم أنّ العلم الحديث نقض مفهوم الحتميّة في نظريّة نيوتن.

III . التقانة من نظرة إيمانية

لا يشكّل العمل نشاطاً خارجياً من وجهة نظر الإيمان الكتابي، والتقانة فيه ليست شأناً إضافياً. إنّ نظرة الكتاب المقدس إلى الإنسان ككائن يحبّ الكمال ومدعّو إليه، تجعل التقانة إحدى صفاته الأنثروبولوجية.

١. الإنسان

ما هي علاقة الهوية الإنسانية بالتقانة؟ لتوضيح ذلك سنعود إلى تفسير للقديس باسيليوس الكبير الذي يميّز في مفهومه للإنسان ثلاثة أطرٍ:

a. "ما هو": أي هوية الإنسان، دوره وعمله وغاياته في الحياة، صلاحه أو شرّه.

b. "ما له": أي ما يملكُ الإنسان استخدامَه، وموجودٌ في تصرفه وينشط به.

---

٧ راجع ب. ليندساي وهـ. مارجينو، **أسس علم الطبيعة**، نيويورك ١٩٣٦، ص٥١٧.

c. "ما حوله": أي المحيط الذي يعمل فيه وينشط، من عالمٍ بشريّ أو ماديّ أو معنويّ.

بالنسبة للقديس باسيليوس، يستخدم الإنسان بالشكل الأفضل "ما له" لأوسع إطار في "ما حوله" لكي يعبّر عن "ما هو" أو يكونه.

من هنا فإنّ التقانة هي صفة نشاط الإنسان طالما أنه يسعى إلى الكمال الروحيّ فـــ "ما حوله" و"ما له" "ليسا عالَمين لا يتصلان بـــ "ما هو" وبدعوته، لا بل إنهما يعرّفان معاً "ما هو"، وبناء على ذلك النشاط تتحدّدُ قيمة الإنسان، بين صلاحه أو شرّه، دينياً. فالدعوة الدِّينية إلى الفضيلة (طريق الكمال) تفسَّر عملياً بالتزام" التقانة" في الأعمال والنشاط الإنساني عموماً. علاوة على ذلك، فإنّ الإنسان، من وجهة النظر الكتابية، هو فنّان وخلاّق. وغاية الأعمال ليست إشباع الحاجات فقط بل أكثر، غايتها هي الإبداع والتطوير. العمل لسدّ الحاجة هو مجرّد وجه دنيوي للنشاط البشري، أما الوجه الرّوحي، الذي يُعطي العملَ حقَّه الروحي والسامي ويبرّر فيه التفاني والتقانة، فهو الإبداع والجمال واللون الفني فيه وليس مجرد الطابع الماديّ.

التقانةُ إذاً هي المدلول على أنّ العمل البشري يسعى إلى الكمال وليس فقط إلى الاستهلاك أو رفع العوز. التقانة ترفع إنسانية الأعمال فوق ماديّتها. وكلّ مادة مرصودة دينياً لتصير أكثر إنسانية.

لقد عرف التاريخ البشري عدة ثوراتٍ، وشهد قفزاتٍ واضحة. قامت الثورة العلمية والصناعية فغيّرت المسيرة البشرية بعد القرون الوسطى، ثم تلتها اليومَ الثورةُ الرقمية، وهذه بدّلت كثيراً في البنى الروحية والتطور الاجتماعي، واليوم تزامنها الثورة البيولوجية التي قد تُبدّل ما هو أكثر في "ما لـــ" الإنسان إن لم يكن في "ما هو" برأي البعض. كما تطرح الثورةُ الاتصالية تحدّياتٍ وتسهيلاتٍ كبيرةً وجديدةً على الحياة الإنسانية.

ما أحوجنا اليوم إلى "ثورة دينية" في عالم تتسارع فيه الثورات والقفزات العلمية، وهذه الثورة الدِّينية التي نحتاجها علينا أن تنقلنا من "تقانة بالدِّين" إلى "دين بالتقانة"!

٢. التقانة التي من الإيمان

الدِّين ليس الإرثَ الموروث وحسب، ولا هو شريعة مسلَّمة وحسب. الدِّين هو طبيعةُ العلاقة التي يقيمها الإنسان مع الله ليواجه بها تحديات حياته في هذا العالم، تجاه كلّ ما هو ماديّ وتجاه كلّ ما هو اجتماعيّ، أي في "ما حوله".

١. التقانة بالدِّين: لقد شهدتْ عصورٌ عديدة، السابقة منها وحتى اليوم، تطوراً دينياً ملحوظاً. فالمؤسسات الدِّينية هي الأفضل في العديد من المجتمعات. وتكسب النشاطات الدِّينية الحضور الأول في

الحياة الاجتماعية. كما أنّ رجال الدِّين يحظون بثقة الناس أكثر من أيّة شريحة أخرى كرجال السياسة أو الاقتصاد...

وفي عالم تقانة التعليم الدِّيني أو النشاط الاجتماعي للأديان، فإنّ هذه الأخيرة، مراتٍ عديدة، هي السبّاقة. نظرةٌ سريعةٌ مثلاً إلى استخدام وسائل الاتصال والإنترنيت، تفيدنا بها الإحصائياتُ العالمية، من حيث عدد المواقع وعدد روّادها، تذهلنا، لأنّ الصفحات الدِّينية هي في المقدمة! إذاً هناك تقانة كبيرة في الدِّين، في تعليمه أو تفسيره وفي خلق وتطوير مؤسساته.

٢. ديانة بالتقانة: لكنّ الثورة المطلوبة اليوم في عالم الدِّين، هي ألاّ تنحصر التقانة الدِّينية في الأطر الإيمانية والنظرية ولا حتى الاجتماعية. إنّما نحتاج إلى تطويره من موضوع نجاح الحضور الدِّيني إلى حقيقة النجاح في تديين النشاط البشري، وجعل الممارسة الدِّينية متقنة، عميقة وحقيقية. عندها لا يصير التديّن تعصبّاً بل خدمياً أكثر، ولا يعود الدِّين فاصلاً بل لاحماً. الديانة بالتقانة هي الممارسة الدِّينية المتقنة، التي لا تسقط في الحرف الذي يقتل بل تعمل بالرّوح الذي يحيي.

في هذه الثورة الدِّينية المنتظرة لن يتضارب العلم مع الدِّين ولا العقل مع الإيمان، إنّما تتديّن الأعمال، حيث يصير للعمل هدفٌ روحيٌّ وللرّوح هدفٌ عمليّ. هناك سوف تنجح المجتمعات البشرية في توضيح وتثبيت تفوّق الرّوح على المادة، وتجعل من كلِّ مادةٍ أداةً لنبض الرّوح. هناك ستترتب الأعمال بأهميتها الروحية فلا تصنِّف الأعمالَ أرباحُها بل إنسانيتُها.

ما أحوجنا إذاً إلى ثورةٍ دينيةٍ تصعد بالدِّين من مستوى الهواية أو الهوية الدِّينية، إلى مستوى تلوين الحياة العملية، لأنّ في الدِّين ضمانة الدنيا، وفي الرّوح ضمانة المادة، والإيمان موجّه العقل.

تقانة الدِّين ناجحةٌ في أيامنا، لكنها تنجح في تسويقه، ولا نخطئ إذا سميناها "تجارة" الدِّين الناجحة.

الديانة بالتقانة، هي مرحلة الممارسة الحقيقية للدِّين التي لا تفصل الدِّين عن الدنيا، ولا تترك الدنيا دون دين. إذا لم نتقن تديّننا، لن ندِّين تقانتنا. "اعملوا كلّ شيءٍ بإتقان وحسن ترتيب"، يصرخ بولس الرسول[٨]. ولعلّ هذه الوصية، في الثورة التي نشتهيها، تخصّ الإيمان قبل الأعمال.

"التقانة" هي هوية الجدّية الدِّينية. متديِّنٌ دون تقانة، هو تاجرٌ دينيٌ. وعاملٌ دون تقانة هو عاملٌ ملحد مهما "تديَّن"، لأنّ الدِّين هو تقانة الحياة.

الدِّين كدعوةٍ للكمال لا يفهم الأعمال والإيمان دون تقانة. الدِّين ثورة في أساسه، الدِّين دعوة للتحسين، الدِّين توبيخ لكلّ واقعٍ خاطئ، الدِّين سعيٌ لتأليه الإنسان، أي نقله من التراب إلى السماء.

---

[٨] ١كور ١٤، ٤٠.

هذه الحركة الصاعدة لا تتم بقبول "الراهن". الدِّين حلمٌ روحيّ يريدُ العالمَ دائماً أفضل ويجعلُ الإنسانَ أسعد، ويسير بالدنيا لما هو أجمل. هذا هو سرّ أهمية "التقانة" في الدِّين. كما أنه ما من إيمانٍ حقيقيّ بدون تقانة، فإنّه ما من تقانةٍ حقيقيةٍ من أجل الإنسان بدون الإيمان.

المراجع

لونجمان، **التصوف والمنطق**، نيويورك

ليندساي، ب. و مارجينو، هـ.، **أسس علم الطبيعة**، نيويورك ١٩٣٦.

مصطفى جحا، **محنة العقل في الإسلام**، ١٩٨٢.

ولتر سيتس، **الدِّين والعقل الحديث**، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، الكويت ١٩٩٨.